

أحاديث رمضان ٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٦٠-٤٨) : تعظيم الله عز وجل
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٦-١٠-٢٠٠٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعود الأمين.
أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

مقدمة حول تعظيم الله عز وجل:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا:

موضوع اليوم تعظيم الله عز وجل، هناك آيات كثيرة من هذه الآيات:
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

[سورة الأحزاب]

١ - مركز ثقل الآية: ذِكْرًا كَثِيرًا

الكلمة في هذه الآية هي مركز ثقل كثيراً، لأن المنافقين يذكرون الله قليلاً، قال تعالى:
(وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا)

[سورة النساء]

إذاً الأمر هنا ينصب على الذكر الكثير، ثم إن الله عز وجل يقول:
(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِه)

[سورة الحج: ٧٨]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِلُهُ)

[سورة آل عمران: ١٠٢]

٢ - المطلوب هو المستوى الأعلى:

إذاً هناك مستويات من الإيمان الدنيا لا تكفي، ولا تنجي، ولا تسلم صاحبها من عقاب الله عز وجل، المطلوب المستوى الأعلى يؤكده:

(اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

[سورة الأحزاب]

(وَجَاهُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جَهَادِهِ)

[سورة الحج: ٧٨]

(اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ ثُقَاتِهِ)

[سورة آل عمران: ١٠٢]

مع آيات التعظيم:

الأية الأولى: إِنَّمَا كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ

١ – المطلوب الإيمان بالله العظيم:

الآن مع التعظيم، قال الله عز وجل يصف من استحق النار يوم القيمة:

(إِنَّمَا كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة: ٣٣]

الإيمان بالله حاصل حتى من قبل إبليس، إبليس قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا عُوِيَّنُهُمْ أَجْمَعُونَ)

[سورة ص:]

فبعزتك، فآمن به ربأ، وآمن به عزيزاً، وقال:

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ)

[سورة ص: ٧٦]

وآمن به خالقاً، وقال:

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبَعَّثُونَ)

[سورة الأعراف:]

وآمن باليوم الآخر، ومع ذلك فإبليس لا شاك في بعده وكفره ومعصيته.

٢ – المطلوب إيمان يحجز عن المعصية:

إذاً: أن تؤمن أن الله خلق السموات والأرض هذا الإيمان لا يقدم ولا يؤخر، لأنه لا يحجزك عن معصية الله، حينما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل: وما حقها؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم بسند ضعيف]

أيها الإخوة الكرام، ما لم يكن الإيمان رادعاً لك عن أن تعصي الله، وما لم يكن الإيمان حاملاً لك على طاعة الله فلا تعبأ به إطلاقاً، وهو لا يقدم ولا يؤخر، بل إن معظم البشر يؤمّنون بالله، عدا قلة قليلة جداً لا يعتد بها عطلت عقلاً، وكفرت بالله، حتى أرباب الأعمال التي فيها معاشي وأثام تقول لك امرأة: إن الله وفقة في هذه الرقصة، إن الله وفقة في هذا الدور، مثلاً، العمل كلّه محرم، فكل إنسان يؤمّن بالله إيماناً يجعله يعتقد أن جهة قوية خلقت الكون، وهي توفيق، وهي لا توفق فليس مؤمناً، وما دام الإنسان لم يوقع حركته وفق منهج الله فإيمانه لا يقدم ولا يؤخر، أنا أريد أن أؤكد على أن الإيمان الذي شاع بين معظم الناس هو إيمان ما لم تصحبه استقامة والتزام لا ينجي لا في الدنيا ولا في الآخرة.

٣ - حقيقة مرّة: انفصال الأمر والنهي عن العبادة عند الناس:

كيف انفصل عند الناس الالتزام بالأمر والنهي عن العبادة؟!، هو يعبد الله، يصلّى، يصوم، يحجّ، يعتمد، لكنه ليس مستقيماً؛ لا في كسب ماله، ولا في إنفاق ماله، ولا في علاقاته، ولا في سلوكه، فلنلاحظ نفع في وهم، ودائماً وأبداً الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح، ولو قرأت قوله تعالى فدققوا:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[سورة التوبه: ٨٠]

(وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ)

[سورة التوبه: ٥٤]

أثبت الله لهم الكفر، ثم وصفهم بأنهم يصلون، فإن تكون الصلاة عملاً من نوع العادات والتقاليد، من نوع أنها فرض لا بد أن تؤدى، وأن تفصلها فصلاً كلياً عن كسب مالك، وعن إنفاق مالك. مرة وصل إلى سمعي أن إنساناً يصلّى في المسجد ببيع أقراساً لأفلام إباحية، كيف هو متوازن بين إفساد الشباب وتدمير الأسر وأداء الصلاة؟ هذه مشكلة المسلمين الأولى، يتوجهون أنه إذا صلّى كان ديناً، والدين لا علاقة له بشؤون الحياة.

٤ - الإسلام عبادات شعائرية وتعاملية متكاملة:

الصلاحة أيها الإخوة والصيام، والحجّ عبادات شعائرية، ومعنى شعائرية أنها مناسبة لتقبض من خلالها ثمن عباداتك التعاملية، الأصل أن هناك عبادات تعاملية. الأصل أن ترك دائق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام. الأصل لأن تمشي مع أخي في حاجته خير لك من صيام شهر، واعتكافه في مسجدي هذا.

الأدلة الشرعية على ارتباط العبادات بالمعاملات:

حينما توقن أن جوهر الدين أن تلتزم الأمر والنهي عندئذ أصبح للصلوة معنى، وللصوم معنى، وللحجّ معنى، ولل عمرة معنى، أما قبل أن تلتزم فلا تقبل العبادات الشعائرية ولا تصح.

الدليل الأول:

((أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا لَهُ دِرْهَمٌ، وَلَا دِينَارٌ، وَلَا مَتَاعٌ، قَالَ: الْمُفْلِسُ مِنْ أَمْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَأْتِي بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةً، وَيَأْتِي قَدْ شَتَّمْ عِرْضَهُ هَذَا، وَقَذَفَهُ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَهُ هَذَا، وَضَرَبَهُ هَذَا، فَيُقْعَدُ، فَيَقْتَصَرُ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُفْضَى مَا عَلَيْهِ أَخْذُ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي التَّارِ))

[مسلم، الترمذى]

أنا أقدم لكم الأدلة من القرآن والسنة، هذه الصلاة.

الدليل الثاني:

الصوم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ لَمْ يَدْعُ قُولَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدْعُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[البخاري، الترمذى أبو داود، ابن ماجه، أحمد]

رُبّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش.

الدليل الثالث:

الزكاة:

(فَلْ آتُفُقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقْبَلَ مِنْكُمْ إِنَّمَا كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)

[سورة التوبه: الآية ٥٣]

الدليل الرابع:

الحج، من حج بمال حرام و وضع رجله في الركاب، وقال: لبيك اللهم لبيك، ينادي: أن لا لبيك، ولا سعديك، وحجك مردود عليك.

الدليل الخامس:

بقي النطق بالشهادة،

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل: وما حقها ؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم بسند ضعيف]

هذه الشهادة، والصلوة والصوم والحج والزكاة، هذه الأركان لا تقبل تلك العبادات، ولا تصح إلا إذا صحت العبادات التعاملية.

هان أمر الله على المسلمين فهانوا على الله:

لذلك ما معنى التعظيم؟ التعظيم أن تعظم الأمر والنهي، أن تعظم أمر الله.

لذلك يمكن أن نقول: إن مشكلة المسلمين الأولى في هذه المقوله، هان أمر الله عليهم فهانوا على الله.

لا شك أنكم تسمعون كيف أن الطرف الآخر يتقنن، يتقنن في إفقارنا، ثم في إصلاحنا، ثم في إفسادنا، ثم في إذلالنا، ثم في إبادتنا، وكأنه مسموح له أن يبيدهنا إبادة كاملة، لأنه هان أمر الله علينا فهنا على الله.

حقيقة التعظيم: الوسطية بين الأفراد والتفريط:

أيها الإخوة الكرام، تعظيم الأمر ماذا يعني؟ تعظيم الأمر يعني أن لا تتحققه على كمال الامتثال، أن تستخدم رخصاً واهية، إما أن تخفي كميته أو نوعيته، والصلوة كيما كان، والصوم بغير استقامة، تركت الطعام والشراب، لكن من غير انضباط بالجوارح، ولا بلسان، إما أن ترخص برخص واهية تبعد العبادة عن كمال الامتثال، وهذا أحد أنواع عدم التعظيم، أو أن تبالغ، وتتشدد في تطبيق الأمر بشكل ليس كما فعله النبي عليه الصلاة والسلام بشكل يؤدي إلى كراهية العبادات.

١ – تكليف الناس بالقدر المستطاع:

حدثني أخ جاء من بلد إسلامي دخل إلى مسجد، في كل ركعة صفتان من كتاب الله، ثلاث ساعات التراويح، يبقى صfan أو ثلاثة، أيضاً المبالغة والإطالة حتى في الدعاء، وحتى في الصلاة لدرجة أن الإنسان يكره العبادة لا يجوز.

الإنسان له دخل معين، كان يعمل في فندق، كان يستخدم آلة موسيقية في فندق، وتاب إلى الله، يأتي من يقول له: هذا المال الذي جمعته مال حرام يجب أن تتخلص منه كلياً، ماذا تعني التوبة بالنسبة إليه؟ أن يكون فقيراً، لكن بعض العلماء قال: توبته تطهر ماله، هل يعقل أن تقول للتابع: يجب أن تعيش جائعاً لأنك تبت، وكل شيء جمعته من ضرب على آلة معينة بفندق محرّم يجب التخلص منه.

أوضح مثلٍ: جمع رجلٌ مبلغًا، تاب إلى الله، يجب أن يتخلّى عن هذا المال كلّه، لتجدو فقيرًا متسولاً، أنت بهذه الطريقة تكره التوبة للناس.

الإنسان تاب في سن معين، يقول له: يجب أن تصلي صلوات من ثلاثين عاماً سابقة، هذا فوق طاقته، هذا نوع من التنطع، نوع من المبالغة، نوع من تنفير الناس.

٢ - التوبة تمحو الذنوب:

مثلاً: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفرَ لَهُ مَا تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ))

[متفق عليه]

((وَمَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ))

[متفق عليه]

((مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَقْسُقْ رَجَعَ كَيْوَمْ وَلَدَّهُ أُمُّهُ))

[متفق عليه]

ومن تاب توبة نصوحاً أنسى الله حافظيه والملائكة، وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنبه.

هذه نصوص صحيحة يجب أن تكلفه بصلوة ثلاثين عاماً، هذا هو التنطع والتشدد، شخص أقام تزيينات، وهو مهندس تزيينات ديكور بمتحف غير إسلامي، قيل له: خسرت كل صلواتك لثلاثين عاماً سابقة، وطلقت زوجتك.. جعله على الحديد.

هناك فتاوى لا يمكن أن تكون مقبولة، وهذا التشدد والتنطع، وتحميل الناس ما لا يطيقون غير مقبول.

احذرو من الغلو والتفريط:

أنا أقول: هذا أيضاً يدخل في الإفراط، الأول فرط، يعني قصر، والثاني أفرط، وأداء العبادات ينبغي أن يكون بين الإفراط والتفريط، أن تؤدي كما أداها النبي عليه الصلاة والسلام. فأول شيء بعدم التعظيم الترخيص الذي يبعد العبادة عن كمال الامتثال.

الثاني: الغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي، وقد قال بعضهم: وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، إما إلى تفريط وإضاعة وإما، إلى إفراط وغلو، وبين الله وسط وبين الجافي عنه والغالى فيه، الشيطان له في كل أمر إلهي نزغتان، نزغة إلى التفريط والتقليل وعدم الإنقاذ وعدم الأداء، نزغة إلى التفريط، ونزغة إلى الإفراط، كما أن الجافي عن الأمر مضيع له، والغالى فيه مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوز الحد، قال تعالى:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَعْلُوْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ)

[سورة النساء: ١٧١]

بهذا أرشد رسول الله المسلمين في العبادة:

الغلو أن تتجاوز الحد، الغلو أن تأخذ فرعاً من فروع الدين، وتجعله الدين كله، الغلو أن تتشدد تشديداً ما فعله النبي عليه الصلاة والسلام.

الحديث الأول:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَ الدِّينُ أَحَدٌ إِلَّا خَلَبَهُ، فَسَدَّدُوا، وَقَارَبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْعَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٌ مِّنْ الدُّلْجَةِ))

[منفق عليه]

استعينوا على طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة.

الحديث الثاني:

حديث آخر:

((لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ فَإِذَا فَتَرَ فَلَيَقُعُ))

[منفق عليه]

الحديث الثالث:

وفي صحيح مسلم:

((هَلَّكَ الْمُتَنَطَّعُونَ، قَالَهَا ثَلَاثًا))

وهم المتعمعون المتشددون.

مرة أحد الصحابة صلى إماماً، وقرأ سورة الواقعة، والحديث في الصحاح، أحد المؤتمرين طال عليه الوقت، فخرج من الصلاة، واشتكى إلى النبي عليه الصلاة والسلام، قال له: يا معاذ، أفتان أنت يا معاذ؟ أفتان، ولما صلى النبي عليه الصلاة والسلام وحده قرأ البقرة وأآل عمران والنساء والمائدة في ركعة واحدة، وأما إذا صلى إماماً كان أخف الناس صلاة في تمام.

أن تقلل من أداء العبادة بالتقسير، أو بعدم الإتقان، أو أن تبالغ مبالغة تخرجها عن وضعها الصحيح إلى درجة أنك تتفرج الناس منها، أيام الدعاء يبقى نصف ساعة أحياناً، يعني جاء أعرابي إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال له يا رسول الله عظني ولا تظل تلا عليه

قوله تعالى: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره قال كفيت، فقال النبي الكريم: فقه الرجل، معنى فقه أصبح فقيهاً.

الحديث الرابع:

((عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لَا يَمْلُأُ اللَّهُ حَتَّى تَمْلُوا))

[البخاري]

الحديث الخامس:

وفي السنن أنه قال:

((إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتَّبِعٌ، فَأُولَئِكُمْ فِيهِ بِرْفَقٌ))

لا تبغضن إلى نفسك عبادة الله.

أنا والله سمعت عن أخي كريم أنه يوم في بيته زوجته وأمه وبناته وأولاده، ويصلني التراويح، دفق، أنا أتمنى أن تأتي إلى المسجد، هذا يسعدني، لكن أنت إذا ضمنت أنك صليت التراويح بزوجتك وأمك وأولادك وبناتك فهذا شيء جيد جداً، الدين يسر.

مرة سألني أخي: التراويح كم ركعة؟ قلت له: صل ثمانية، وصل اثنين عشرة، وصل عشرين، وصل في البيت، وصل في المسجد، كله جائز، الدين يسر، يدور مع ظروف الإنسان

((إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتَّبِعٌ فَأُولَئِكُمْ فِيهِ بِرْفَقٌ))

ولا تبغضن إلى نفسك عبادة الله.

أيها الإخوة الكرام، تعظيم أمر الله أن تأتي به بشكل وسطي معتدل كما فعله النبي عليه الصلاة والسلام، من دون تفريط، ومن دون إفراط.

والله هناك متشددون يكرّرون الناس في الدين، وبلا مبرر، وبلا أدنى حاجة إلى هذا التشدد، أما الذي يقصر في أداء هذه العبادات هذا أيضاً وقع في الغلو، قال تعالى:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوْا فِي دِينِكُمْ)

(سورة المائدة: ٧٧)

الوسط بين التشدد غير المبرر والتساهل غير المشروع:

فنحن نريد أن نأتي بالعبادة بين التشدد غير المبرر، وبين التساهل غير المشروع، أن تأتي بها كما أتى بها النبي عليه الصلاة والسلام، فعن مالك بن الحويرث قال:

((أَتَيْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ شَبَّابَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَاقْمِنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لِيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَفِيقًا، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدْ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا، أُوْقِدَ اشْتَهَيْنَا سَأَلْنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا

بَعْدَنَا، فَلَخَبِرْنَاهُ، قَالَ: ارْجُوْنَا إِلَى أَهْلِكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ، وَمَرُوهُمْ، وَذَكِّرْ أَشْيَاءَ
أَحْفَظُهَا، أَوْ لَا أَحْفَظُهَا، وَصَلُوْكُمْ كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصْلَى، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَدِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ
وَلِيَوْمَكُمْ أَكْبَرُكُمْ))

[متفق عليه]

مرة سمع النبي بكاء طفل فاختصر في صلاته، وقال سمعت بكاء صغير ينادي أمه بكائه فرحمت
أمه.

هكذا كان النبي عليه الصلاة والسلام، أنا لا أقصد أبداً أن تقلل من أداء العبادة خوفاً من التشدد،
العبادة حدية، تؤدى كما أداها النبي، أما المبالغة فيها فهي تشدد غير مبرر.

والحمد لله رب العالمين